ثنائية اللغة

عربي جوبا- نموذج التمايز والتواصل

د. حيدر إبراهيم علي(*)

تمهيد:

يتميز السودان بتعدد وتنوع في اللغات يقل وجوده في دول العالم، إذ يقدرها البعض بأكثر من مائة وخمسين لغة. وتتسم هذه اللغات بقدر من التباين أحيانًا والتداخل تارة أخرى. فالسودان قطر شاسع مساحته حوالي مليون ميل مربع، وله حدود مشتركة مع تسع دول. كما أن موقعه الجغرافي، جعله معبرًا لهجرات مستمرة طوال التاريخ وحتى اليوم من الغرب إلى الشرق ومن الجنوب إلى الشمال، وبالتأكيد في اتجاهات معاكسة أيضًا. وفي نفس الوقت، السودان دولة حديثة نسبيًّا، فقد كان السودان مجرد تعبير جغرافي حتى غزو محمد علي عام ١٨٢١. فقد أطلق الجغرافيون والرحالة اسم السودان على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر وحتى المحيط الأطلسي وقُسمت إلى ثلاثة أقاليم. وهذا يعني غياب حواجز في شكل حدود إدارية وسياسية تمنع الحركة والهجرة.

كان على السودان بعد الاستقلال عام ١٩٥٦، أن يواجه هذا التنوع الثقافي، من خلال بناء دولة وطنية قائمة على الوحدة والتنوع في آن واحد. هذا، وقد فشل السودان المستقل في ضبط هذه المعادلة، وبالتالي دخل في حرب أهلية ثم حروب لاحقة ذات أسباب شبيهة بحرب الجنوب التي اندلعت منذ آب/ أغسطس ١٩٥٥، أي قبل الاستقلال بشهور قليلة. وتحولت الحرب في السنوات الأخيرة إلى حرب ذات أبعاد دينية وثقافية على حساب الأبعاد السياسية والتنموية الأصلية. وبرزت قضايا التعريب والأسْلَمة إلى المقدمة في كل مراحل الصراع أو التفاوض. لذلك، مثلت اللغة عنصراً أساسيًّا واستراتيجيًّا لدى كل الحكومات المتعاقبة في السودان. ويكثر الحديث حول السياسات اللغوية أو التخطيط اللغوي أو قوانين للغات. كما لا يتوقف الجدل والنقاش والكتابة حول أوضاع اللغة في السودان.

(*) مدير مركز الدراسات السودانية ـ السودان.

تبرز هذه الورقة السياسات اللغوية المختلفة التي حاولت حل مشكلة الثنائية، وأثر ذلك علي التعليم والثقافة في السودان. وإلى جانب هذه القضية، تقدم نموذجًا للتفاعل ـ الصراعي ـ إن صح التعبير ـ مع اللغة التي يرون أنها مفروضة عليهم، أي اللغة العربية، كما يظهر في عربي جوبا. فهذه اللغة الهجين، هي محاولة لاكتساب لغة أخرى مع الحفاظ على هوية ثقافية مبهمة أو مهددة حسب رأيهم. لذلك يتم تبنِّي اللغة بعد "تخريبها" أو تعديلها لإفساد أي آثار أخرى غير التواصل اليومي. وهذا يعني أن تكون اللغة ـ حرفيًا ـ أداة خارجية للتواصل دون أن تحدث تغييرات عميقة في التفكير أو المعتقد. ويُلاحظ أن الأطفال بالذات النازحين هم الأكثر حاجة لمثل هذه الأداة بسبب وجودهم في أوساط عربية. فهم يعيشون منطقة وسطي بين لغتين وتجبرهم الظروف علي التحدث بلغة مشحونة بالإيديولوجيا.

سياسات اللغة العربية قبل الاستقلال ١٩٥٦:

يمكن القول بأن اللغة العربية انسابت إلى السودان مع الهجرات العربية المبكرة، وانتشرت بسبب حركة التجار. ثم بعد ذلك مع هجرات رجال الصوفية إلى المناطق المختلفة داخل ما يُسمى ـ آنذاك ـ بالسودان الشرقي. وفي أحيان كثيرة، تعايشت اللغة العربية مع اللغات المحلية السائدة، ومثال ذلك اللغة النوبية في شمال السودان عند دخول العرب. ففي مناطق النوبة التي كانت تسكنها قبائل الكنوز والمحس والدناقلة والسكوت، احتفظت هذه القبائل بلغاتها المحلية إلى جانب اللغة العربية. فأصبح للشخص لغتان، النوبية يتكلم بها مع أبناء قبيلته، بينما يستخدم العربية مع سائر المتحدثين والناطقين بالعربية[i]. وهذا تجسيد لقانون اللغات والذي يقول بأنه "إذا نزح غزاة أو مهاجرون إلى بلد ما، اشتبكت لغتهم بلغة أهله في صراع قد يؤدي إلى انتصار إحدى اللغتين على الأخرى، فتغدو لغة السكان. وقد يؤدي إلى بقاء إحداهما إلى جانب الأخرى وقتًا طويلاً"[ii]. ويلاحظ أن العربية تغلبت على القبطية في مصر، والبربرية في شمال أفريقيا (لحد كبير) والحامية والزُّنْجية في السودان. ولكن هذا التطور يأخذ وقتًا طويلاً، وهو مشروط بكثرة عدد القادمين وأن يمتزجوا بالسكان الأصليين، وأن تكون اللغتان المتنازعتان من مجموعة واحدة أو مجموعتين متقاربتين[iii].

يبدو أن السودان شهد قدرًا من التعايش السلمي اللغوي كان له أثره الواضح في العامية، والاستعارة المتبادلة للكلمات والأهم من ذلك الهجين وهو ما نراه في عربي جوبا. إذ يرى الدارسون للعامية السودانية أنها قوية العروبة، وينطبق نفس الشيء على اللهجات العربية في السودان. ويلاحظ "الشريف" أن عامية السودان، رغم أنها في جوهرها وإطارها العام عربية صميمة شكلاً ومعنًى، إلا أنها تأثرت إلى حد ما من ناحية التركيب والمحتوى. ومثال التأثير في التركيب، المقطع البجاوي "آب" الذي يدل على النسبة، فيقولون "عبدلابي" بدل "عبد

اللاوي" . وهناك مقطع "آية" الدال على الإفراد والتخصيص والتصغير في مثل قولهم "غنماية" و"قملاية" وهو مجهول المصدر. وأما المحتوى، فقد ترسبت كلمات كثيرة مثل مصطلحات الزراعة والري. هذا وقد أحصى "الشريف" ٢١٥ كلمة نوبية أغلبها من مسميات أجزاء الساقية والأنواء والرياح التي تهب على النيل، وحوالي ٦٢ كلمة بجاوية و١٥ كلمة فرعونية و١٠٨ فارسية و٢٣٧ أوروبية[iv].

لم تشكل قضية اللغة في الماضي البعيد مثار خلاف أو اهتمام، رغم تعاقب الدول ونظم الحكم في السودان. واستمر هذا الوضع حتى عهد الحكم الثنائي، البريطاني ـ المصري (١٨٩٨ـ ١٩٥٦). وقد برزت مشكلة اللغة والثقافة عامة حين حاولت الإدارة البريطانية البحث عن صيغة مُثْلَى لحكم بلد في حجم وتعقد السودان. واختارت الإدارة البريطانية نظام الحكم غير المباشر (**indirect rule**) والذي يعتمد على القيادات المحلية أو ما يُسمى بالإدارة الأهلية (**native administration**) أي أن تفوض الحكومة المركزية، الحكام المحليين من زعماء ورؤساء قبائل ومشايخ وعمد ونظار. ومن الملاحظ أن البريطانيين محافظون لا يريدون تغيير الأمر الواقع، بل تطويعه وتوظيفه للحكم بلا مشكلات. كما أن الاستعمار البريطاني يختلف في فلسفته عن الاستعمار الفرنسي والذي يحاول جعل المُستعمَرين (بفتح الميم) جزءاً من الدولة الأم وبالتالي يتمثلون ثقافتها أي الفرنسية، ويصبحون امتداداً لها من خلال اكتساب اللغة. وفي هذا الإطار، يمكن أن نفهم تطبيق سياسة المناطق المغلقة وقانونها الصادر عام ١٩٢٢. هذا وقد قرر البريطانيون في الجنوب، انتهاج سياسة تبدو بسيطة شكلاً ـ حسب رأيهم ـ ولكنها معقدة، كما تحددها مذكرة السكرتير الإداري للمديرين، وفقًا لتعليمات الحاكم العام، كما يلي:

"إن سياسة الحكومة بالمديريات الجنوبية هي العمل على قيام وحدات عنصرية قائمة بذاتها أو وحدات قبلية ذات بناء ونظام يقوم إلى حد ما وفقًا لمقتضيات العدالة، وأن الحكومة الصالحة هي التي تشجع الأعراف والعادات والمعتقدات القبلية"[v].

كان البريطانيون حريصين على تثبيت الأوضاع كما هي(**Status Quo**)، وبالتالي رأوا في العرب والمسلمين مصدراً محتملاً لتغييرات مقلقة ومثيرة للاضطراب والفوضى. وقد يصعب على الحكام ضبطهم مستقبلاً. لذلك، كانت المعايير المطلوبة لتنفيذ هذه السياسة، هي إنشاء هيئة من العاملين الذين يتكلمون بغير العربية ـ سواء من الإداريين أو الكتبة أو الفنيين ـ والحد من هجرة التجار الشماليين. والعمل على أن يعوّد الموظفون، القبائل استخدام اللغة الإنجليزية لدى استحالة التخاطب باللهجة المحلية[vi]. وكان الهدف من هذه السياسة محاربة التأثير العربي في الجنوب بكل الوسائل. فقد كان من الممكن أن تكون العربية لغة سهلة للتواصل والاتصال بين كل قبائل الجنوب، خاصة وقد كان التجار الشماليون (الجلاَّبة) يجوبون كل أنحاء الجنوب قبل الحكم

الأجنبي. وقد تَقرَّر أن تكون اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية بالذات في الإدارة والتدريس، وهذا يعطي المتحدث بها وضعية اجتماعية أفضل. وأصبحت الإنجليزية سلاحًا إيديولوجيًا، خاصة وقد ربط المستعمرون (بكسر الميم) اللغة العربية بأن حملتها وأصحابها هم أحفاد تجار الرقيق الذين اضطهدوا الجنوبيين وباعوهم في أسواق النخاسة. وتم استخدام اللغة الإنجليزية في دواوين الحكومة وفي المدارس الوسطى الأربع في كل من مديريتَيْ منقلا وبحر الغزال ، والتي تقوم بتخريج الجنوبيين لشغل وظائف إدارية صغرى والعمل كفنيين. ومن ناحية أخرى، فقد شجع البريطانيون موظفيهم على تعلم ثقافات القبائل المحلية.

وضعت الإدارة البريطانية أهمية كبرى على التعليم وعقدت عدة مؤتمرات لمناقشة نظم التعليم في جنوب السودان. وكان أهمها مؤتمر جوبا الذي انعقد في ١٦/ ٤/ ١٩٣٣، والذي أكد فيه مدير مصلحة المعارف ـ آنذاك ـ الحاجة إلى توفير مدرسين محليين، خلال عدد قليل من السنين، مشيراً إلى وجوب اتخاذ الإجراءات الكفيلة بسير سياسات التعليم بما يتلاءم مع سياسة الحكومة المقررة في هذا الشأن. ولذلك، كان من الطبيعي أن يؤكد المؤتمر على أن تطور نظم التعليم يجب ألا يهدف إلى القضاء على المؤسسات الأهلية والاجتماعية القائمة، أو أن يعزل المتعلم الجنوبي عن بيئته، بل أن تعلمه كيف يمكن له أن يكيف نفسه وأسلوب حياته مع الأفكار والظروف الجديدة، أي أن يصبح عضواً صالحًا ومفيداً في قبيلته. ومن أجل هذه الأهداف تقرر تشجيع مدرسي الإرساليات والمدرسين البريطانيين على تعليم اللغات القبلية والتقاليد والعادات المحلية بقصد تدريس تاريخ وثقافة هذه القبائل، كما أُدخل تعليم الموسيقى والرقص والحرف اليدوية التي تصنعها القبيلة. ووصل الأمر، بالإدارة البريطانية لدرجة ترحيل الطلاب الكبار الذين كانوا بمدارس الإرساليات إلى قبائلهم للالتحاق بالمدارس الجديدة. وتقرر عدم قبول الإرساليات لتلاميذ إلا من أبناء الطبقة الراقية دون المتشردين وأبناء السبيل![vii].

تثير النقطة السابقة تساؤلاً هامًّا وهو موقف الحكومة من الإرساليات والتبشير. فقد كان موقف الحكومة مرتبكًا ومترددًا بين الإبقاء الكامل للأمر الواقع وبين بعض التغيير ، خاصة إذا كان يمكن أن يوقف هذا التغيير المد العربي ـ الإسلامي القادم من الشمال. وقد مالت الحكومة في البداية إلى ضرورة السيطرة الكاملة، وإبعاد الإرساليات أو على الأقل مراقبتها، وأن تهيمن بمفردها على مجال التعليم واللغة والثقافة.

في المرحلة الأولى (١٠ ـ ١٩٢٠)، كان هناك بعض التساهل مع الإرساليات غير الناطقة بالإنجليزية شريطة استعمال اللغة المحلية ومعها الإنجليزية فقط كلغة ثانية وليس العربية. وكانت هناك صعوبة، وقد ورد أن الحاكم العام ونجت باشا قد رفض في مدينة واو، استعمال العربية كوسيلة تخاطُب وشرح في المدرسة، وأن تكون الإنجليزية علمًا أو مقرراً يدرس. ويري أن هذا

الوضع سوف ينتج "مسلمين يتحدثون العربية مع إنجليزية رديئة." ولكنه تنازل عن مطلبه بإبعاد العربية[viii]. إذ لم تستطع الإرساليات تطبيق أهداف الحكومة، فقد عجز رجال الكنائس عن تعلُّم اللهجات القبلية والعادات والتقاليد. يُضاف إلى ذلك وجود عدد كبير من الكنائس الإيطالية التي لم تكن ترغب في فرض الإنجليزية.

واجهت الإدارة البريطانية احتمال أن يؤدي تنصير أطفال الجنوبيين إلى ابتعادهم أو اغترابهم عن قبائلهم. وهذا يدعم فكرة الإدارة الأهلية القائمة على النظام القبلي، إذ من الطبيعي في هذه الحالة أن يكتسب الجنوبي المتعلم ولاءات جديدة وهويات مختلفة. ومن ناحية أخرى، قد تنقسم القبيلة الواحدة إلى مذاهب دينية مختلفة مثل البروتستانت أو الأرثوذكس أو الكاثوليك. وهذه الاختلافات قد تكون مصدراً لعدم الاستقرار. هذا وقد ظهر اتجاه يرى إبعاد الإرساليات كلية عن التعليم في الجنوب. ولكن في خطاب للحاكم العام (٧/ ١٢/ ١٩٣٧) يعبر عن اعتقاده "بأن نظامًا تعليميًّا وتربويًّا وعلمانيًّا تحت الإشراف الحكومي، لن يوفر الضمانات الملائمة ضد خطر انتشار الإسلام أو النعرة القومية، وذلك فضلاً عن أنه كان يتطلب أموالاً طائلة لا قبَل للبلاد بتوفيرها"[ix]. ومن ناحية أخرى، لم تتقدم اللغة الإنجليزية كثيراً بسبب نقص الكتب المدرسية وعدم قدرة الإرسالية الإيطالية، وهي الأكثر عدداً، علي إنجاز المهمة. وهكذا انتشرت العربية رغم كل الجهود لإيقافها.

كانت جبال النوبة ذات وضعية مماثلة للجنوب حسب قانون المناطق المقفولة لعام ١٩٢٢. وقد أظهرت الإرساليات ضعفًا واضحًا في أدائها التبشيري والتعليمي لنقص العاملين الأكفاء. فقد واجهت التعليم مشكلة اللغة بحدة في جبال النوبة. فقد أُعيد النظر في موضوع اللغة عام ١٩٣٥ بعد أن ثبت عمليًّا فشل سياسة تعليم اللغة العربية الدارجة وكتابتها بالحروف اللاتينية. وكان الحل المقترح هو تدريس اللغة العربية الفصحى الحديثة وليس القديمة باعتبارها اللغة الملائمة لاحتياجات معظم الأهالي. ولكن هذا التغيير المقترح وجد معارضة شديدة من جانب الإرساليات على أسس مهنية ودينية. فقد خشي رجال الكنيسة من استخدام اللغة العربية ـ الفصحى وليست الدارجة ـ باعتباره سيكون سببًا في انتشار وذيوع الفكر والثقافة الإسلاميين في جميع جبال النوبة. ومن الجدير بالذكر أن أديان سكان جبال النوبة ـ مثل الدينكا ـ كانت حاجزاً أمام انتشار النفوذ المسيحي[x].

استطاعت السياسات الاستعمارية تعطيل أو إبطاء انتشار اللغة العربية والإسلام في الجنوب وجبال النوبة، ولكنها عجزت عن منع أو وقف انسياب اللغة العربية السلمي في تلك المناطق. ولم يَحْتَجْ المواطنون لدعم الدولة، فقد كانت التجارة والهجرة والتعليم من أهم وسائل بقاء واستمرار اللغة العربية. يُضاف إلى ذلك مرونة وسهولة اللغة العربية خاصة في الحديث، ولم تمثل الحروف

الصعبة وطريقة النطق عقبة أو عقدة أمام المكتسبين الجدد للغة. وكما انتشر الدين الإسلامي من خلال المهاجرين والصوفيين وليس بقوة الدولة وسلطة العلماء الفقهية، فقد وجد استجابة واسعة وبلا قيود ولم يصطدم بالأديان والمعتقدات المحلية. وينطبق نفس الشيء على اللغة التي لم يحملها علماء لغة أو شعراء فصحى بل العامة من التجار والصوفيين.

السياسات اللغوية المعاصرة:

تبدأ هذه الحقبة عندما بدأت دولتا الحكم الثنائي في التفكير جديًّا في تقرير مصير السودان. وكانت البداية مع تكوين المجلس الاستشاري لشمال السودان عام ١٩٤٤، وتزامن مع هذا تكوين الأحزاب السياسية. وقد كرس المجلس والوضع في الشمال فكرة اختلاف الجنوب. وبالفعل دعا بعض الإداريين إلى فصل الجنوب وضمه إلى شرق إفريقيا، باعتباره أقرب ثقافيًّا إلى تلك المنطقة. وظهر تيار آخر يقول بدمج أجزاء من الجنوب في الشمال وأجزاء أخرى في شرق إفريقيا. أما الاتجاه الثالث، فيرى دمج الجنوب في الشمال رغم الاختلاف، وذلك لأن المصلحة تقتضي هذا الاختيار.

حدد بيان لوزير الداخلية في ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٦ الاتجاه الجديد وهو اختيار دمج الجنوب في الشمال، مما يعني تغيير السياسة اللغوية، وقد تم تبرير ذلك بالأسباب التالية:

١ـ إن العوامل الجغرافية والاقتصادية تحتم الربط بين شعوب جنوب السودان وبين التطور المقبل لبلاد الشرق الأوسط وشمال السودان الذي تسوده النزعة العربية.

٢ـ أن هذا الربط بين الشمال والجنوب أفضل من ترك الجنوبيين في عزلة عن التأثيرات الخارجية، وذلك حتى لا يفقد الحكام الإنجليز القدرة على إعدادهم لمواجهة مثل تلك التأثيرات ثم يضطرون إلى تركهم فجأة فريسة سهلة لثقافة أرقى.

٣ـ يمكن أن يتلقى أبناء الجنوب تعليمهم في كلية غردون التذكارية في الخرطوم، حيث لا تعد اللغة العربية مادة أساسية فيها.

٤ـ ربما كان من الأوفق أن تدرس اللغة العربية للجنوبيين ابتداء من المرحلة الثانوية[xi].

كان هذا البيان تدشينًا لمرحلة جديدة في العلاقة الشمالية ـ الجنوبية فقد أعقب ذلك، انعقاد مؤتمر جوبا التاريخي في ١٢ـ١٣/ ٦/ ١٩٤٧ والذي حسم ارتباط الجنوب بالشمال، رغم اعتراض عدد كبير من الإداريين الإنجليز. وهذا يعني انحياز السياسة اللغوية إلى اللغة العربية. وقد حاول بعض المعارضين وضع عقبات أمام هذا التوجه، ومن بينهم أوين الذي بعث بمذكرة للحاكم العام يعبر عن رأي زملائه. فقد اقترح أن يبقى التعليم في الجنوب موحداً حتى المرحلة الثانوية، أي أن يكون التعليم الابتدائي باللغة المحلية أولاً ثم يتحول إلى اللغة الإنجليزية حتى الثانوية حيث تدرس

فيها اللغة العربية كمادة من مواد الدراسة. ويطالب بحماية أبناء الجنوب من أن يتعرضوا لسيطرة الحضارة العربية في الخرطوم "وهي حضارة أبعد عن حضارة الجنوب من حضارة الإنجليز" أي أن حضارة الجنوب أقرب إلى حضارة الإنجليز منها إلى الحضارة العربية[xii].

سادت سياسة جديدة عقب مؤتمر جوبا وحتى السنوات الأولى للاستقلال، حيث بدأت وزارة المعارف في اتخاذ القرارات والإجراءات العملية لعودة اللغة العربية إلى التعليم في جميع مراحله في المديريات الجنوبية. فقد تم تعيين مساعد لمدير المعارف للمديريات الجنوبية من أبناء الشمال للإشراف على إدخال اللغة العربية في المدارس وتدريب المعلمين ووضع المناهج العربية، وإنشاء دار للنشر في جوبا للقيام بطباعة المناهج والمقررات الدراسية، والقيام بحملة واسعة في الجنوب لمحو الأمية باللغة العربية، وإنشاء معهد تدريب المعلمين الجنوبيين في اللغة العربية (معهد مريدي) في عام ١٩٥٤[xiii]. وقد قامت وزارة المعارف بخطوة كبيرة في اتجاه إدخال اللغة العربية في الجنوب، حين استدعت خبيرًا لغويًا من جامعة القاهرة عام ١٩٥٥ للمساعدة في كتابة لغات الجنوب بالحروف العربية عوضًا عن الحروف اللاتينية. وقد أمكن تحويل عدد من كتب المطالعة للمدارس الأولية، واقتصر على تحويل نظام الكتابة (**transliteration**) وليس التأليف بها. وقام الفريق بوضع سلسلة كتب مبادئ تعلم القراءة والكتابة العربية لأبناء الجنوب للمرحلة الابتدائية (الأوَّلية) سُميت "العربية السهلة"، وسلسلة أخرى بعنوان: "العربية للكبار"[xiv].

لم تكن سياسة الحكم والصراع حول السلطة مساعدة لتحقيق عملية التفاعل اللغوي بين الشمال والجنوب. فقد سارت سياسة الأحزاب الشمالية خلال فترة الحكم الذاتي في اتجاه يغذي مخاوف الجنوبيين من السيطرة الشمالية والتي أخافهم منها البريطانيون باستمرار. وازدادت الشكوك مع الاستعداد للاستقلال، ففي عملية سَوْدَنَة الوظائف وحين أُعلنت نتائج لجنة السودنة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٤، تحولت شكوك الجنوبيين التي غذيت طوال خمسين عامًا من الاستعمار، إلى عدوانية وكراهية، وتأكد لهم موقف الشماليين المتعالي. فقد ذهبت ثلاث وظائف فقط إلى جنوبيين ـ مساعد مفتش مركز واثنان من المآمير ـ رغم أنهم يمثلون تقريبًا ثلث سكان البلاد. وأُصيب المتعلمون الجنوبيون بخيبة أمل كبيرة لم تُجْد معها محاولات زعيم الحزب الوطني الاتحادي الحاكم بإرضائهم من خلال وعود في المستقبل بتحسين الوضعية على مستوى الحكومة المركزية[xv]. وجاء الخطأ القاتل عقب الاستقلال مباشرة، فقد وعدت الأحزاب الشمالية الجنوبيين بقيام نظام فدرالي للحكم يساير روح مؤتمر جوبا. ولكنها كانت خدعة لكي يصوت النواب الجنوبيين مع الاستقلال، وبالفعل أُجيز اقتراح الاستقلال بإجماع الأصوات. واكتفت الأحزاب الشمالية بأن المطلب سوف يُعطَى اعتباراً بعد انتخابات الجمعية التأسيسية المنوطة بوضع الدستور. وتمت الانتخابات في عام ١٩٥٨ ولم يكن تمثيل الجنوبيين معقولاً في لجنة الدستور،

ولذلك رسمت اللجنة في مسوَّدتها دستوراً لدولة عربية إسلامية. وهكذا أصبح مطلب الفدرالية غير شرعي وكانت هذه البدايات الحقيقية الأولى للتمرد[xvi].

قطع انقلاب الجنرال عبود في ١٧/ ١١/ ١٩٥٨ الطريق أمام الجمعية التأسيسية، ولكن حكومة العسكرية تبنت سياسة التعريب والأسلمة الكاملة للجنوب بكل السبل بما فيها العنف والقمع، يكتب أليز: "وكانت الحكومة العسكرية في غمرة حماسها لخلق سودان موحد قد شجعت انتشار الدعوة الإسلامية في الجنوب، واستعاضت عن اللهجات المحلية واللغة الإنجليزية بالعربية وسيلة للتعليم، وجعلتها أيضًا لغة التخاطب والمراسلات في المكاتب الحكومية، مما أدى إلى إعفاء الموظفين الجنوبيين الذين يجهلونها. وسارت قدمًا فحرمت التبشير المسيحي إلا بإذن صادر عنها، وفق منطوق قانون الجمعيات الكنسية التبشيرية الذي أصدرته في عام ١٩٦٢. وفي شباط/ فبراير ١٩٦٤، أبعدت نحواً من ثلاثمائة مبشر مسيحي وجعلت الجمعة عطلة أسبوعية في الجنوب بدلاً عن الأحد. وأقامت هناك كثيراً من المساجد والمعاهد الدينية الإسلامية وفرضت ضغطًا على السلاطين والمتعلمين في الجنوب ليعتنقوا الإسلام دينًا لهم، ونقلت عدداً من الموظفين والمعلمين الجنوبيين بصورة جماعية إلى الشمال"[xvii].

أدت هذه السياسات إلى تفاقم التمرد، لذلك كانت الانتفاضة الشعبية في ٢١/ ١٠/ ١٩٦٤ والتي أسقطت نظام عبود نتيجة للسخط الشعبي السوداني عامة على ممارسات الحكم في الجنوب. ومن هنا جاءت فكرة المائدة المستديرة بقصد الوصول إلى حل ديمقراطي لمشكلة الجنوب، والذي انعقد في ٦/ ٣/ ١٩٦٥. وتكونت لجنة الاثني عشر لمواصلة البحث عن حل سلمي، رغم أن الأجواء لم تكن مهيأة بسبب استمرار التمرد بالإضافة لمقاطعة الجنوبيين للانتخابات. ورغم جهود لجنة الاثني عشر، لكن الخلافات كانت عميقة حول قضايا، مثل: طريقة اختيار رئيس الإقليم الجنوبي، وعدد الأقاليم بينما أصر الجنوبيون على أن يظل الجنوب موحداً. وكان الاختلاف حول الثقافة والتعليم كبيراً، فقد طالب نواب الجنوب بالحفاظ على ثقافات الجنوب وتطويرها، واقترحوا أن يكون التعليم شراكه بين الأجهزة المركزية والإقليمية نسبة لخصوصية الجنوب. وقد رفض الشماليون هذه المقترحات[xviii].

اللغة أداة التنوع والوحدة:

بعد فشل مؤتمر المائدة المستديرة، كانت المحاولة الثانية لحل المشكلة الجنوبية في عهد الحكم العسكري الثاني بقيادة النميري. فقد أثرت سنوات حكمه بالتوجهات اليسارية التي قادت ثورة أكتوبر ١٩٦٤ الشعبية. وضمت حكومته الأولى شخصيات ذات اهتمام خاص بالجنوب، لذلك سرعان ما أصدر النظام بيان ٩ حزيران/ يونيو ١٩٦٩ بعد أسبوعين فقط من الانقلاب. واعترف

البيان بالتنوع الثقافي بين الشمال والجنوب، وبأن لجنوب السودان الحق في أن يعمل على تطوير ثقافاته الخاصة. وفي نفس الشهر عقد مؤتمر قومي للتعليم لوضع سياسة لغوية جديدة للجنوب، كان من أهم توصياتها:

١ـ يبدأ التدريس في مدارس المديريات الجنوبية في المدن والأماكن التي تتعدد فيها اللغات أو اللهجات المحلية، باللغة العربية فوراً.

٢ـ تستعمل في الأماكن الأخرى (الأرياف) إلى جانب اللغة العربية اللغات المحلية السائدة في المنطقة في السنتين الأولى والثانية بالمدرسة الابتدائية، على أن تُكتب بأحرف عربية حتى يألف التلميذ الخط العربي ويجيد استعماله فيما بعد.

٣ـ إجراء دراسات في اللغات المحلية بغرض تنميتها لتزيد من إثراء التراث الشعبي.

٤ـ أن يكون الانتقال إلى اللغة العربية في المراحل المتقدمة تدريجيًّا حتى لا تهتز الفصول التي تستخدم اللغة الإنجليزية.

٥ـ مضاعفة الجهود لإعداد المعلمين المؤهلين لتدريس اللغة العربية من أبناء الجنوب، وذلك بتوفير مراكز تدريب خاصة لهذا الغرض[xix].

جاءت اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢ لتأكيد هذا التوجه. فقد نصت على أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للجمهورية السودانية، على أن تكون الإنجليزية هي اللغة الرئيسة في الإقليم الجنوبي، دون المساس باستعمال أي لغة أو لغات قد تخدم ضرورة عملية لأداء مهام الإقليم التنفيذية أو الإدارية بكفاءة أفضل (الفصل ١١، القسم ٥ من الاتفاقية). ولكن النميري نقض الاتفاقية بنفسه حين أعلن قوانين الشريعة الإسلامية في سبتمبر ١٩٨٣.

لم يمنع الموقف الرسمي المهتمين بأوضاع اللغة في السودان من مواصلة جهودهم التي أطلقتها أجواء اتفاقية أديس أبابا التي أقرت مبدأ الوحدة والتنوع في السودان المتعدد الثقافات. وزخرت تلك الفترة بجهود ونشاطات رسمية وشعبية تدعم الفهم الجديد للعلاقة بين الثقافات السودانية المختلفة. فقد أنشأت جامعة الخرطوم، وحدة أبحاث السودان التي تطورت إلى معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية والذي أصبح أكبر مركز للدراسات والأبحاث اللغوية في السودان، إن لم يكن في إفريقيا. وقد بدأ في عام ١٩٧٢ مشروع البحث اللغوي للسودان. ثم انضم معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، للمشروع عام ١٩٨١. وفي الجنوب، وقّعت الحكومة الإقليمية في عام ١٩٧٢ اتفاقية مع المعهد الصيفي للغويات (SIL) لعمل مسح لغوي في جنوب السودان، وتقديم خدمات تعليمية لكتابة لغات الجنوب بالحروف اللاتينية وترجمة الإنجيل إلى هذه اللغات. وأورد "أبو بكر" أربع محاولات دعت إلى إنشاء جهاز للتخطيط اللغوي منذ عام ١٩٧٧، وقدم مشروع قانون للتخطيط اللغوي أُعد عام ١٩٨٠. ومن أهم أهدافه: المحافظة على التراث اللغوي

السوداني باعتباره جزءاً من الشخصية الثقافية السودانية، وذلك برصد مختلف اللغات واللهجات وتدوينها وتوثيقها والاستفادة منها في أغراض التنمية الاجتماعية والفنون والتعليم، والعمل على حل المشكل اللغوي في التعليم. أما اختصاصاته فتتمثل في: دراسة واقع اللغات من حيث كثافة المتحدثين بها وانتشارها واستخدامها في أغراض الحياة المختلفة، ودراسة وضع اللغة العربية بين اللغات السودانية والتنقيب في عملية انتشارها كلغة أم، والعمل على حل المشاكل التي تواجهها كلغة مشتركة للتخاطب وكلغة للتعليم[xx].

كانت مشكلة الجنوب دومًا التحدي الاستراتيجي لأي نظام حكم في السودان، لذلك لم يكن في قدرة النظام الحالي رغم شعاراته الإسلامية ألا يجعلها أولوية. وقد يكون بسبب شعاراته الإسلامية نفسها، إذ لم يكن بإمكانه الاستمرار خطوة للأمام والحرب الأهلية مشتعلة والجنوبيون خارج هيمنة الدولة الواحدة. لذلك بادر مبكراً وبعد خمسة أشهر فقط من الانقلاب، بعقد مؤتمر أسماه "مؤتمر الحوار الوطني حول قضايا السلام." وقد جاء في التوصية رقم ٢٧ الفقرة الخاصة بالتربية ضرورة أن يكون التعليم فدراليًّا يراعي خاصية التنوع الثقافي. وفي النقطة الثانية نقرئك "أن تعتبر التخطيط التربوي في هذا السياق الخبرة التاريخية للغة العربية لغة أُمًّا لجماعة سودانية كبيرة ولغة تفاهم لجماعات سودانية عديدة." ويضيف في موضع آخر: "أن تعتبر التخطيط التربوي في هذا السياق الخبرة للغات المحلية وأن يأخذ بالحكمة التربوية المقررة في لزوم أن يبدأ التعليم بتلك اللغات. ولضعف شأن هذه اللغات بالقياس للغة العربية والإنجليزية وجب على التخطيط التربوي ما يلي:

أ ـ أن لا يعتذر بضيق الإمكانات ليحجب لغة محلية عن التعليم بشكل نهائي.

ب ـ أن يتبنى مبادرات الجماعات الثقافية والقبلية في تطوير لغاتها وتبنِّيها في مدارسها المحلية".

ومن ناحية أخرى، أصدرت الحكومة في عام ١٩٩٧ "قانون المجلس القومي للتخطيط اللغوي." وهو مشروع قديم لكن لم يتم تنفيذه إلا في ذلك التاريخ. لذا، فهو يحمل نفس الأهداف والاختصاصات التي وردت في كثير من المقترحات السابقة[xxi].

عربي جوبا: لغة للمقاومة أم للتكيف؟

تعرضت الورقة في الصفحات السابقة إلى أهمية اللغة في التطور السياسي والتاريخي والدستوري للسودان. ولم تقتصر على كونها قضية بحث عن وسيلة تواصل وتفاهم بين أجزاء الوطن الواحد. ولكنها اشتبكت مع قضايا الوحدة الوطنية، والتنمية وقسمة السلطة والثروة والمشاركة عمومًا. ويمكن القول إن قضية اللغة في السودان تحولت إلى سلاح أصيل في المعارك

السياسية والإيديولوجية التي تعيشها البلاد. ويمكن إرجاع هذا الصراع أو التفاعل إلى فترة بعيدة نسبيًّا تمتد إلى بدء تشكل ما يُسمى حاليًّا بالسودان في عشرينيات القرن التاسع عشر، حين تعرض السودان الشرقي إلى أول غزو منظم في القرون التي تلت الممالك الفرعونية القديمة.

تراوحت معركة اللغة في السودان بين التخطيط المقصود وبالتالي فرض تبادل منافع ومصالح بالذات خلال التجارة والزراعة. وقد شهدت القارة الإفريقية مصدرين رئيسين للإدماج الثقافي، وحسب الآراء الأخرى- محو الثقافة الإفريقية، وهما الثقافتان العربية والإفريقية. وبالنسبة للعربية فقد أخذ انتشارها في إفريقيا أشكالاً مختلفة خلال ما يزيد على ألف عام. ويكتب أحد المؤرخين: " . . وفي بلاد الساحل بغربي إفريقيا والقرن الإفريقي وشرق إفريقيا والساحل الغربي، كانت اللغات الإفريقية قادرة نسبيًّا على الاحتفاظ بنفسها وكانت العربية تُستعمل في الغالب لأغراض دينية أساسًا. أما على طول مضيق النيل والمناطق الوسطى من بلدان الساحل، فإن لغات إفريقية كثيرة تعرضت للموت "[xxii]. وحسب **Trimingham**، فقد ارتبط التعريب بوجه خاص بانتشار الرعاة كما في حالة المغرب، وارتبط بالسيطرة السياسية العربية في مصر. وقد لاحظ أنه خلال الانتشار الأول للعرب والمسلمين، أحلت العربية نفسها بسهولة محل اللغات ذات الخلفية السريانية الآرامية أو القبطية. ورغم هجرة واستيطان التجار وأحيانًا بأعداد كبيرة، لم يؤد بالضرورة إلى التعريب. وفي مناطق أخرى لم تصبح العربية اللغة الشائعة (**Lingua Franca**) في المدن الساحلية لشرق إفريقيا، رغم أن التأثير العربي كان قويًّا في وجوه كثيرة للحياة. وفي إفريقيا الزنجية انتشر الإسلام عن طريق الأفارقة تمامًا ولم تقدم العربية كلغة حية. وكانت العربية في إفريقيا لغة مقدسة كلية مع استعمال دنيوي محدود أو معدوم وتسللت فقط كلمات عامية قليلة في الحياة اليومية[xxiii]. وضمن هذه التحليلات يعتبر عدد من المؤرخين وعلماء اللغات الأجانب، أن جنوب السودان هو أكثر مناطق الاحتكاك العربي الإفريقي في عنفه الثقافي. وهذا بالطبع يرجع إلى غلبة السياسي على الثقافي واللغوي أو التوظيف السياسي الفائض للعناصر الثقافية في الصراع الشمالي ـ الجنوبي.

يمكن النظر للعلاقة الثقافية بين الشمال والجنوب في السودان بطريقة أقل حدة وسياسية، حين نسترجع عفوية التفاعل بين أجزاء الوطن. ومن ناحية أخرى، نربط بين اللغة العربية والتطورات الأساسية في اللهجات واللغات الإفريقية السائدة. فهناك لغات كبرى في غرب إفريقيا مثل الهوسا والبمبارا تأثرتا باللغة العربية. بينما لهجات شائعة أهم في شرق إفريقيا مثل كيسوا جيلي تعتبر اشتقاقًا "بانتويًّا" عن العربية. وأبدت اللغات المحلية قدرة على القبول والانفتاح على اللغات الأخرى[xxiv]. وهذا ما كان من الممكن حدوثه بسهولة لو لم تدخل العوامل السياسية والإيديولوجية بشدة. ولهذا جاء عربي جوبا محاولة للتكيف أو التفاعل، وفي نفس الوقت المقاومة

أو على الأقل التمايز وليس الاندماج الكامل (**assimilation**). لذلك، فقد يمثل عربي جوبا مقاومة . . . وهل عربي جوبا تعبير عما يسميه فرانسيس دينق الهوية المنقسمة؟ (كتاب صراع الرؤى، مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠١) خاصة وقد احتل موضوع الهوية الثقافية موقعًا محوريًا في الحوار والصراع ومفاوضات السلام بين الشماليين والجنوبيين.

دلت الإحصائيات على أن الذين يتحدثون بلغات غير عربية في السودان تبلغ نسبتهم ٤٨,٤٪ من مجموع السكان، وأن ٥١,٦٪ هم الذين يتكلمون العربية فقط اللغة الأولى أو لغة الأم (**Mother Tongue**)، ورغم ذلك يستخدم غالبية المتحدثين بلغات غير عربية العربية في الحياة، كلغة للتواصل والثقافة والتعامل الاقتصادي والاجتماعي مع الناطقين بالعربية ومع الناطقين بلغات أخرى في السودان. فهي لغة تواصل خرجت عن الفصحى، لا العامية النموذجية التي يتحدث بها سكان المدن والحضر. وهذا ما يُسمى باللغة الهجين (**Pidgin language**) التي يمثلها عربي جوبا، والمصطلح ليس مقصورًا على جوبا وإنما يمتد إلى كل عربية سودانية متأثرة باللغة الأم في لغات الشرق أو الغرب أو الشمال[xxv]. ويستعير عشاري مصطلح (**Pidgin-Creole**) لوصف عربي جوبا[xxvi]. والذي يطلق على لغة مبسطة تستخدم للتفاهم بين الشعوب الناطقة بلغات مختلفة، وبخاصة رطانة إنجليزية تستخدم في الأغراض التجارية في الموانى الصينية.

يقدم "عشاري" تاريخًا اجتماعيًا لعربي جوبا يحتوي على خصائص أساسية في دراسة الظاهرة، وهي:

١- ترجع جذور عربي جنوب السودان للمستوطنات التي أُنشئت في جنوب السودان على يد التجار خلال سنوات منتصف القرن التاسع عشر.
٢- ظهر عدد من أشكال العربي الهجين الجنوبي وليس واحدًا وفي أماكن متعددة.
٣- تطورت وانتشرت اللغة الهجين نتيجة تحولات بنائية في أنماط الإنتاج القائمة.
٤- تتوقف اللغة الهجين على النمو مع غياب الأسباب الاجتماعية ـ الاقتصادية التي أنتجتها[xxvii].

أخذ عربي جوبا في تطويع اللغة العربية وأخضعها لنظام اللغة الأم في نظامها الصوتي والصرفي والنحوي. ويلاحظ "أبو بكر" أن مفردات اللغة العربية تفقد أكثر من عشرة أصوات عربية، هي أصوات الإطباق وأصوات الحلق (ص ض ط ظ ح خ ع غ ق) وأصوات أخرى. وفي بنية كلماتها تفقد الميزان الصرفي والتأنيث والتذكير، والتعريف والتنكير، وتفقد عددًا من الضمائر والجموع، ولم يبق في كلماتها سوى ملامح الكلمة العربية التي تحتاج من السامع إلى تمعن لإدراك عربيتها، لأن تراكيبها قد تحولت إلى تراكيب اللغة الأم[xxviii]. ويرى تطورًا في عربي جوبا بسبب الاحتكاك والنزوح إلى مناطق عربية. ويلاحظ أن اللغة التي يتخاطب بها قيادات التمرد مع جنودهم (من

قبائل مختلفة) هي عربية جوبا المتطورة وليست عربية جوبا التي نسمعها في إذاعة الوحدة (في إذاعة أم درمان).

تستخدم بعض منظمات المجتمع المدني عربي جوبا في تقديم موضوعات حديثة ولكن تكتب بالحروف الإنجليزية، وفيما يلي نموذج لمقتطف من كتاب (Nafhm Jendar) أي فهم الجندر:

Ashan ard daiman be katibu fi isim bita Rujaal, Rujaal bega kebir bita beit, ashaan kida Rujaal yahu indum hak ashaan yeshillu selefiya (deyin) yesterik fi masharia bita hukuma

(عشان أرض دائمًا بكتبوا في اسم بتا رجال أي تكتب الأرض باسم الرجال أصبح كبير البيت، ولذلك الرجال يا هو عندم هق أشان يشيلو سلفيه، يشترك في مشاريع بتا حكومة أي بتاع حكومة).

وفي موضع آخر:

Tajarib min mahalat ketir fi duniya be guul innu Nuswaan lizu bara min shogol bita zira

وهي في تجارب من مهلات كثير في دنيا بيقول أنو نسوان لزو بره من شغل بتا زرا. (أي تقول التجارب في كثير من الأماكن بإبعاد النساء من عمل الزراعة).

وفي شرح لوضعية المرأة، يقول الكتاب:

Mara lazim be yekdim wa yesma taalimaat bitta Rajil, we hwo mumkin be talabu de be ganuun fi mahkama mara.

(مرا لازم يكدم ويسما تأليمات بتا راجل، وهو ممكن بي تالبو دا بي قانون من مهكمه مرا)، (أي لابد للمرأة أن تخدم وتسمع تعليمات الرجل لأنه ممكن أن يطالب بذلك في محكمة الأحوال الشخصية).

يقع هذا الكتاب في ٩٧ صفحة من القَطْع الصغير ويحاول تقديم المفاهيم والأفكار الخاصة بالنوع (الجندر). ورغم أن حيز هذه الورقة لا يسمح بالإسهاب والتفصيل، فقد تعمدت تقديم موضوع يمكن أن يكون معقداً وليس مجرد حديث التخاطب اليومي. ويلاحظ أن هذا الكتاب يخاطب قطاعًا حديثًا من الجنوبيين مهتمين بموضوعات جديدة مثل النوع أو الجندر. وهذا يعني أن عربي جوبا يُبعث من جديد وبين أجيال أصغر سنًّا. وفي الشهر الماضي (نوفمبر/ تشرين الثاني) أجرى صفا الصالح، من هيئة الإذاعة البريطانية، استطلاعًا بين عينة من الأطفال الجنوبيين في الخرطوم، وقد لاحظ انتشارها رغم المدارس العربية.

كانت لغة عربي جوبا هي السائدة حتى بين الشماليين الذين يعيشون في الجنوب. وقد أجادها بعض الشماليين وكتبوا بها الشعر. وتُعتبر الأغنية والموسيقي وسائل فعالة في الانتشار. فهذا الشاعر شمس الدين الخليفة ينقل مشاعر حبيبته الجنوبية، بلغة عربي جوبا، حين علمت بخبر سفره مغادراً إلى الشمال، تقول القصيدة:

سوري (sorry) لي أنت يا أخي

كفارة لي أنا

يوم في الباص لقيتو

هياني (حياني) هيتو (حيتو)

الزول البيريدو

اطلع بره بيتو

شكل مانقه ذاتو

في سوق بره سفتو (شفتو)

لما أنت فوتو (حين الوداع)

أنا أعمل كيف يا بابا[xxix].

واستخدم بعض الكتاب الشماليين تعبيرات من عربي جوبا رأوا أنها أكثر تعبيراً. فقد كتب الشاعر صلاح أحمد إبراهيم بلسان مشاعر جنوبي عقب حوادث التمرد عام ١٩٥٥ يعبر فيها عن حزنه، يقول: "منودكرو ماتو سمبلة مجانًا أنا سوري علشانك" والمنودكرو اسم يطلقه الجنوبيين على الشماليين عامة، وسمبلة مجانًا، أي الشمالي مات بلا مقابل أو مجانًا وأنا آسف لما حدث.

رغم أن اللغة الهجين (عربي جوبا) حلت بعض عقبات التواصل ولكن ظلت المشكلات قائمة. فهناك ثنائية يتعرض لها الطفل الجنوبي الآن. فالتعليم باللغة القومية (الفصحى أو العامية الحديثة) من مدرسين غالبًا من الشماليين مما يؤثر في استيعاب المقررات الدراسية والمفاهيم العلمية للمتكلمين بعربي جوبا. ويرجع البعض الفاقد التربوي لهذا الوضع الشاذ. ويتساءل البعض عن أثر اللغة الهجين في سير العدالة خاصة حين يكون القاضي مما لا يتحدثون اللغة الهجين أو المحلية وهل تفيد الترجمة، أي هل هي دقيقة؟ والمريض حين يشكو مرضه لطبيب لا يجيد أو لا يفهم اللغة الهجين؟ وفي علاقات العمل حين يتكلم العمال عربي جوبا مع مستخدم لا يجيدها[xxx].

obeikandl.com

تسبب نزوح سنوات الحرب في زيادة أعداد الجنوبيين في الشمال؛ ولذلك تطورت لغة عربي جوبا. ولكن الازدواجية تضر بالأطفال كثيراً، حين يتحدثون بها أو باللغات المحلية لآبائهم، وفي نفس الوقت عليهم في المدرسة والشارع استخدام اللهجة الوسطية للعربية الفصحى أو عامية الخرطوم. وهذا ما يجعل الأطفال مكتئبين وغير قادرين على التكيف. وقد تولدت ظاهرة لغوية أخرى من هذا التناقض، تُسمى لغة الراندوك. وهي تستخدم الكلمات العربية بمعان حديثة وغريبة وهي أقرب إلى الاصطلاحات المتبادلة أو لغات الفئات التي تريد الاختلاف وألاّ يفهمها الآخرون.

يعاني الأطفال الجنوبيون في الشمال والجنوب من خلل لغوي خطير يهدد قدرتهم علي التعلم والإبداع، مما يجعلهم اكثر عرضة للانحراف والعدوانية. والسبب بسيط ، وهو عدم القدرة علي التفاعل أو سوء الفهم. ولأن العلاقات بين الجنوبيين والشماليين، مشحونة أصلاً، بالشك وعدم الثقة ، فيمكن للغة أن تكون ملغومة باستمرار. ونجد الأطفال الجنوبيين في حالة شجار لا ينقطع خلال التعامل اليومي مثل المركبات العامة والأسواق.

يُلاحظ أن الأطفال والتلاميذ قد يخجلون من التحدث بعربي جوبا، وفي نفس الوقت لا يجيدون العربية الفصحى، لذلك يصمتون فينعزلون. ولكن هذه الظاهرة لم تكن ملاحظة بين الأجيال كبيرة السن. فقد أجاد الكثيرون العربية وحين لا يتحدثونها، فهم يعبرون عن الاحتجاج وليس عدم المعرفة.

يُتوقع أن تزداد الحاجة إلى عربي جوبا حين تتم العودة التطوعية إلى الجنوب. فقد انتشر الجنوبيون طوال سنين الحرب الأهلية في دول الجوار المختلفة اللغات. لذلك، لا بد للجنوبيين من لغة مشتركة، ولا يوجد في هذه الحالة غير عربي جوبا المعدل. والأطفال ـ رغم الصعوبات المذكورة ـ كانوا الأكثر احتكاكًا وتأثراً خلال وجودهم في الشمال، وبالتالي موصل وناشر إيجابي للغة هجين هي امتداد طبيعي لعربي جوبا.

عادت مشكلة اللغة إلى الظهور بشدة مع اتفاقية السلام الشامل الموقعة عام ٢٠٠٥. فقد جاء في الجزء الثاني من الاتفاقية، البند الثاني، الفقرة (٨) عن اللغة ما يلي:

٢ـ٨ ـ ١ :ـ كل اللغات المحلية هي لغات قومية ويجب احترامها وتطويرها وترقيتها.

٢ ـ ٨ ـ ٢ :ـ اللغة العربية هي اللغة القومية واسعة الانتشار في السودان.

٢ـ٨ ـ٣ :ـ العربية لغة أساسية على المستوى القومي، وستكون مع الإنجليزية، لغات العمل الرسمية لأشغال الحكومة القومية ولغات التدريس في التعليم العالي.

٢ـ٨ـ٤ :ـ بالإضافة للعربية والإنجليزية، يمكن للمُشرِّع على أي مستويات ولائية أو محلية، تبنِّي أي لغة أو لغات محلية أخرى بالإضافة للغات الرسمية.

٢ـ٨ـ٥ :ـ استعمال أي لغة رسمية على مستوى الحكم والتعليم، يجب ألا يكون عُرْضَة للتمييز.

شكلت المفوَّضية القومية للمراجعة الدستورية لجنة دراسة قانون المجلس القومي للغات. وعلى المستوى الشعبي، يزداد الاهتمام بالنقاش حول اللغة. ويلاحظ المرء قدرًا من المبالغة في الهجوم على ما يُسمى بالهيمنة العربية الإسلامية، لدرجة تتشكك في ضرورة تبني اللغة العربية على مستوى قومي. وهناك ربط بين السيطرة الاقتصادية والسياسية وبين اللغة. ورغم صحة نسبية لمثل هذه الآراء، ولكنها اتجاهات تتعامل مع التاريخ كعبء وجريمة يتحملها الشماليون. وبالتأكيد يضيع المستقبل ونصبح أسرى ماضٍ نسعى حقيقة أن نتجاوزه بما هو أفضل وليس دفنه وتجاهله.

يُعتبر مشكل اللغة أحد أهم تحديات أن تكون الوحدة جاذبة وأن يقرر الجنوبيون في استفتاء نهاية الفترة الانتقالية عام٢٠١١ اختيار الوحدة عوضًا عن الانفصال. ولكن من الملاحظ أن الثقافة كعنصر هام وحيوي في العلاقة بين الطرفين، لم تجد نفس الاهتمام الذي يُولَي للجوانب الدستورية والسياسية.

خاتمة:

صاحبت سيرورة العولمة ظواهر جانبية تبدو وكأنها متناقضة مع الربط السائد بين العولمة والهيمنة الأحادية. فقد حمل فكر الفترة الحالية والتي يدرجها البعض في ما بعد الحداثة، موقفًا واضحًا تجاه النسبية عمومًا، يكاد يجعلها المعيار المطلق الوحيد وهذه النسبية هي التي تفرض القبول بالتعدد الثقافي داخل الدولة الوطنية رغم وحدتها. فالنسبية الثقافية ضد فكرة وجود مركز مسيطر في كل شيء وضمن ذلك الثقافة. ويحاول المركز أن يجعل الانتماء الوطني مشروطًا بقبول ثقافة المركز. وقد انعكس الوضع، إذ لا بد للمركز أن يعترف بمواطنيه الهامش أو الأطراف رغم ثقافاتهم المختلفة. إذ يجمعهم الحق الدستوري ويساوي بينهم كمواطنين بلا قيود أو استثناءات. وما عودة الإثنيات في عهد العولمة بشدة، إلا سمة غلبة للنسبية على كل أشكال التوحيد التي تأتي رغمًا.

كانت القضية الثقافية واللغوية في السودان، كامنة لأن الصراع أخذ منحًى سياسيا وإيديولوجيا صارخًا. ولكن في البحث عن أسباب وآليات هيمنة الشماليين على الجنوبيين، عثر الجنوبيون على اللغة والدين ووضعوهما في مقدمة الأسباب. ورغم أن الحديث عن تجارة الرقيق وتاريخ الاستعباد قد انحسر ولكن لم يغب تمامًا، إلا أن البعض يسعى لجعلها حزمة تاريخية واحدة. فقد يكون الرقيق المنزلي على الأقل . . . للتحدث باللغة العربية واعتناق الإسلام.

واهتمت الكتابات والنقاشات الجنوبية بضرورة تحديد من هو السودان؟ أي موضوع الهوية الثقافية ـ كما أسلفنا. ودخل السودانيون في جدل يبدو عقيمًا أو غير مفيد في النهاية، يسأل: هل نحن عرب أم أفارقة؟ وحاول البعض الخروج من هذه الثنائية المتوازية، ومن هنا جاءت صفة السُّودانُوِيَّة والتي قد توصلنا إلى أننا عرب أفارقة أو أفارقة مستعربون.

ينظر البعض إلى اتفاقية السلام الشامل بطريقة أبعد من المضمون السياسي والاستراتيجي، بأنها فرصة للتعايش السلمي الثقافي. وما أوردته الورقة في صفحات سابقة عن وضعية اللغة مستقبلاً، يشي بإمكانية عودة الانسياب العفوي والتطوعي للغة العربية بلا شعور بالفرض أو التفوق. وهذا يعني أن الجيل الناشئ الآن مرشح للقيام بهذه المهمة الصعبة، شريطة خلق الأطر الدستورية والاقتصادية والسياسية والثقافية المساعدة في تنمية توجه التعايش السلمي بين الثقافات، والتعامل مع وسيلة هذا التعايش والتواصل وهي اللغة بطريقة أكثر عقلانية وعملية ومستقبلية.

الهوامش

(i) عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧، ص١٥.

(ii) نفس المصدر السابق، ص١٢.

(iii) نفس المصدر السابق.

(iv) عون الشريف قاسم: الإسلام والعربية في السودان. بيروت، دار الجيل، ١٩٨٩، ص٣٦٠ـ ٣٦٢.

(v) جعفر محمد علي بخيت: الإدارة البريطانية والحركة الوطنية في السودان ١٩١٩ـ ١٩٣٩. بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢، ص٢٠٨.

(vi) نفس المصدر السابق.

(vii) محمد عمر بشير: ـ تطور التعليم في السودان ١٨٩٨ـ ١٩٥٦. ترجمة هنري رياض وآخرين. بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٠، ص٢٢٩ـ ٢٣١.

(viii) **Lilian Passmore Sanderson and Naville Sanderson: Education,- (space) Religion and Politics in Southern Sudan**

(ix) جعفر محمد علي بخيت، مصدر سابق، ص٢٤٠.

(x) المصدر السابق، ص٢٤٦. ومن الجدير بالذكر أنه لا توجد أعداد كبيرة من المسيحيين في جنوب السودان وجبال النوبة مقارنة بأصحاب الديانات المحلية. ولكن الذين دخلوا في المسيحية استفادوا من التعليم وتبوؤوا وظائف جيدة جعلتهم يمثلون نخبة هذه المناطق ويتحدثون باسم الآخرين.

(xi) الأمين أبو منقة محمد ويوسف الخليفة أبو بكر: أوضاع اللغة في السودان. الخرطوم، مطبعة جامعة الخرطوم، ٢٠٠٦، ص٧٦.

(xii) المصدر السابق، ص٧٧.

(xiii) المصدر السابق، ص٧٩.

(xiv) المصدر السابق، ص٨١.

(xv) **Mohamed Omer Beshir: The Southern Sudan. Background to conflict. London, Hurst and Co.**

(xvi) أبيل ألير: جنوب السودان ـ التمادي في نقض المواثيق والعهود. ترجمة بشير محمد سعيد. القاهرة، ميدلايت للنشر، ١٩٩٢، ص٢٣. ويوحي العنوان بعدم الثقة التي بدأت تسود بين الشماليين والجنوبيين بعد خروج البريطانيين.

(xvii) المصدر السابق، ص٥ـ٢٦.

(xviii) نفس المصدر، ص٣٨.

(xix) أبو منقة وأبو بكر، مصدر سابق، ص٨٣.

(xx) يوسف الخليفة أبو بكر، "نحو قانون للتخطيط اللغوي في السودان"، في مجلة الثقافة السودانية، العدد ٣٠/ ٣١ أبريل ١٩٩٦، ص١٥.

(xxi) أبو منقة وأبو بكر، مصدر سابق، ص١٠٢ـ١٠٧.

(xxii) كويسي كوا براه: اللغات الإفريقية وتعليم الجماهير. ترجمة حلمي شعراوي. القاهرة، دار الأمين، ٢٠٠١، ص٨ـ١١٩.

(xxiii) **J. Spencer Trimingham:- The Influence of Islam upon Africa. London,**

(xxiv) **R. W. Howe: Black Africa. London,**

(xxv) أبو منقة وأبو بكر، مصدر سابق، ص ١١١ـ ١١٢.

(xxvi) **Ushari Ahmed Mohamed:- Arabic in The Southern Sudan. History and Spread of Pigin-Creole. Khartoum, FAL advertising& Printing Co,**

و **Creole** أو الكريولي هو أحد مواليد جزر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية المنحدرين من أصل أوروبي أو أصل إسباني خاصة وفي معنى آخر هو شخص يجري في عروقه مزيج من الدم الفرنسي (أو الإسباني) والزنجي يتكلم بلهجة من لهجات الفرنسة والإسبانية. كذلك الكريولية هي الفرنسية التي ينطق بها كثير من الزنوج في الجزء الجنوبي من لويزيانا.

(xxvii) المصدر السابق، ص١٠.

(xxviii) أبو منقة وأبو بكر، مصدر سابق، ١٠٩.

(xxix) تقول: أنا أُسفة لك وتقال كفارة للمريض، وتحكي أنها قابلته في الحافلة. حياها فردت التحية. والشخص (الزول) الذي تحبه (بيريدو من الريدة أو المحبة) يسكن في منطقة تُسمى اطلع بره. وهو يشبه قطعة المانقو نفسها (ذاتو). لقد رأيته (سفتو أي شفتو) وعندما تفوت أو تغادر، ماذا تراني فاعلة يا بابا!

(xxx) يوسف الخليفة أبو بكر، مصدر سابق، ص١٤ـ١٥.